الخطاب الأشعري (*)

سالم يفوت

يسعى هذا العمل إلى تحليل الخطاب الأشعري إلى مكوناته، في مختلف مظاهره: الكلامية منها والأصولية والأخلاقية والسياسية، من منظور غير معياري أو تقويمي، ودون وقوع في نظرة أساسها مفاضلة هذا الجانب من التراث العربي الإسلامي على ذاك، لأن ما يهم هو الوقوف على ثوابت الخطاب الأشعري وقواسمه المشتركة.

لم يسلك هذا العمل طريق التأريخ لنشأة المذهب الأشعري ولأطواره المتتالية بل انكب على إخراج آلياته المعرفية إلى واضحة النهار، أي على النظام المعرفي للمذهب ذاته بغية الكشف عن مكوناته وآليات عمله. ولأجل هذه الغاية انتقى متوناً أشعرية وحاول أن يستخرج دلالتها على النظام الفكري الأشعري.

وكان السؤال المحوري هو كيف يشرع العقل الأشعري للنظر والمعرفة وكيف يشرع للسلوك والتدبير والعمل؟ يشتمل الجواب عن السؤال الأول على علمين أساسيين هما أصول الدين وأصول الفقه، بينما يلمس الجواب عن السؤال الثاني مبحثين هما الأخلاق والسياسة. ففي العلمين الأولين، يرشد العقل إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد والأحكام، أما في المبحثين الثانيين. فإنه يقترح ميزاناً للعمل والسلوك به يكون تحصيل السعادة مع حفظ الشريعة ومراعاة أحكامها دون إهمال مافي الثقافات الأخرى من «حكمة خالدة» تلتقي ومقاصد الشريعة الإسلامية.

تتعين سمات المذهب الأشعري بمواقفه من إشكالية استقطبت الفكر الكلامي برمته، وهي إشكالية النقل والعقل. فهو يعتبر النقل أولاً أو سابقاً على العقل وقبل

(*) سعيد بنسعيد العلوى ـ الخطاب الأشعري: مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي. دار المنتخب العربي، بيروت 1992.

وروده وإن وقع تضاد بين السمع والعقل فالغلبة للسمع. فتقديم السمع على العقل سمة مميزة للخطاب الأشعري وهي سمة تترتب عنها سمة أخرى مميزة للخطاب الأشعري، وهي أنه خطاب «التجويز» فمفهوم «التجويز» يحتل فيه مكانة مركزية باعتباره أفرز مفاهيم أخرى كالكسب والقول بالعادة، والانفصال. يؤكد الباحث أن القول بالتجويز مفتاح النسق الأشعري وحجر الزاوية في بنائه المعرفي سواء تعلق الأمر بالكلام أو أصول الفقه أو غيرهما.

ثمة سمة أخرى مميزة للخطاب الأشعري حسب البحث وهي سمة التسويغ. إنه خطاب تبرير يلعب البعد الأيديولوجي دور المحرك فيه، فالخصم الباطني ليس مجرد خصم عقائدي، بل هو كذلك خصم سياسي. كذلك الخصم الحنبلي ليس خصماً عقائدياً، بل هو كذلك خصم سياسي، وهذا موضوع خصص له المستشرق الكبير هنري لاووست كتاباً بكامله هو La Profession de Foi d'Ibn Batta. إن جل المؤلفات التي كتبها الأشاعرة، وحتى غيرهم، في موضوع الأحكام السلطانية تبرير لما حدث تاريخياً ولما يحدث في عصرهم. وليس تشريعاً لدولة مثالية. ولعل هذه السمات شبه عامة، فهي بمثابة قاسم مشترك بين جل المذاهب الكلامية في الإسلام؛ وهذا ما يبرر تشكّل الأستاذ الباحث سعيد في كون انتقادات ابن رشد ومآخذه على المذهب الأشعري في كتاب «الكشف» تجد تربتها خارج أرضية المذهب الأشعري نفسه، وتشكيكه في إمكانية الجزم في وجود تقابل أو تعارض بين الرؤية الرشدية والرؤية الأشعرية. وثمة شواهد عديدة على أن النقد الرشدي للأشاعرة ليس نقداً قاطعاً معهم منها نص أورده الباحث في نهاية الكتاب يقول فيه ابن رشد: «إن القانوني هذا النظر [=التأويل] هو ما سلكه أبو حامد في كتاب «التفرقة» هذا فضلاً عن أن ابن رشد قام بتلخيص مؤلفات أشعرية كتلخيصه لكتاب المستصفى باسم «مختصر المستصفى» ...

* * *

يتسم هذا الكتاب بالرزانة والاتزان والهدوء، ليس فيه انسياق وراء التجريحات

الكبرى أو الأطروحات الانقلابية الشاملة لم يغره الجري وراء المفاضلات ووراء تصيد الوان موهومة للقطيعة أو غيرها وما يترتب عن ذلك من قفز على النصوص بل اكتفى بالانكباب على النصوص نصوص أعلام المذهب الأشعري: وعلى رأسهم الغزالي والجويني والماوردي، وهذا شيء محمود ما أحوجنا إليه في زمن طغت فيه الأطروحات الكبرى والتخريجات الشاملة.

هذا الانكباب على النص هو ما يفسر لنا غلبة المضمون في هذا البحث على تحليل الخطاب. لذا أعتقد أنه ربما كان من الأفضل أن يعنون البحث بالفكر أو المذهب الأشعري بدل الخطاب الأشعري، خصوصاً وأن هذا الأخير لا تمكن بلوغه بسلوك سبيل الوصف والتسجيل اللذين ورد في المقدمة (ص. 16) أن البحث يعتمدهما.

ذلك الانكباب، هو ما يفسر لنا أيضاً غياب البحث في أصول المذهب، وهو أمر اختاره الباحث عن روية وتدبر، والحقيقة أن البحث في الأصول أمر يفرض نفسه خصوصاً بالنسبة لفكر يموج بما يموج به الفكر الأشعري من أقوال متصارعة متضاربة ومضطربة. وهو شيء لا تقف عليه عند المتأخرين، بل وحتى عند المتقدمين، عند الأشعري نفسه، فكتاب الابانة، أقرب ما يكون على مستوى النوايا إلى المؤلفات الحنبلية، حيث جاء في المقدمة «وقد الفته على طريق الامام أحمد بن حنبل نضّر الله وجهه»، لكن الاستدلال المعتمد في ثناياه على جل القضايا الكلامية استدلال بطريق يرفضه الحنابلة، أي قياس الغائب على الشاهد ... «مسألة النظر مثلاً» ويتطلب فهم ذكر الرجوع إلى التاريخ خصوصاً مسألة الصراع الذي كان على أشده في بغداد بين الحنابلة والأشاعرة، وحركة لعن الأشعري له المساجد، مما جعل هذا الأخير يؤلف كتاب **الابانة** على النمو الذي ألفه به ليتقرب إلى الحنابلة، لكن هؤلاء ولم تنطل الحيلة عليهم خصوصاً وإن للأشعري كتاباً آخر موجهاً لهم وللرد عليهم هو كتاب رسالة **استحسان الخوض في علم الكلام**.

أختم كلامي هنا بأمر لا بد من ذكره، وهو أن هذا العمل ينطوي على جهد لا

يقدره إلا من خبر عن قرب البحث في النصوص الفلسفية والكلامية والأصولية الإسلامية.